محمد سلامي msellami5@gmail.com / www.albayanalislami.com

تعقيبات على رسالة :

« التحقيقات الصائبة ...لدفع
الشبهات الغالبة...مما في كتاب
الملة الغائبة... »

لعبد الحفيظ بن محمد

قلم
محمد سلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ومن اهتدى بهداه واقتفى آثاره إلى يوم الدين وبعد ....

قد قرأت بعض المواضيع الحساسة في هذا الكتاب كتأثير الصوفية والشيعة والمرجئة والتقليد وحكم الجاهل وبعض القضايا المدروسة في هذا الكتاب، فرأيته يدرس موضوعا خطيرا وهو المبين في عنوانه «الملة الغائبة».

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد سرني أن أقرأ نقدك لما كتبت، لأن الخطأ من طبيعة البشر، فقد يخطئ الإنسان في المسألة، وقد يخطئ في الاستدلال عليها وإن كانت صحيحة، لكني ما دمت قد أتيت بأدلة -وأنت تسميها شبهات- فكان الواجب عليك تتبعها نقطة بعد نقطة حتى تنقضها كلها، وبالتالي تنتقض النتيجة، هذا إن شئنا أن نتنزل ونقول أن الذي يستدل لمسألة بعشرة أدلة تسعة منها خاطئة في غير محلها، فإن المسألة صحيحة ما دام لها دليل واحد صحيح، فقد نخطئ في الاستدلال أو الرد ولا يعني هذا خطأ المبدأ والقاعدة كلها.

فالملة هي ملة إبراهيم التي عرفت بالحنيفية السمحة، والتي تجردت من كل أنواع الشرك و استمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وهذه الملة هي دين الله ودين الفطرة التي فطر الله عليها عباده، وهذه الفطرة هي الأسس التي قام بها التوحيد والتشريعات الربانية، وحتى تبقى على حقيقتها الأولى لابد أن تنسجم مع مقومات خارجية تكون معها في نفس النمط، بحيث هذه المقومات لا يملكها إلا الرسل والأنبياء وورثتهم، فعلى كل إنسان عاقل أن يسعى في الطلب لهذه المقومات من العلماء أنفسهم التي ورثوها عن الأنبياء، وفي المقابل على العلماء أن يبلغوا هذه المقومات التي ورثوها عن الأنبياء لكافة الناس، وعلى هذا يتنزل قوله-صلى الله عليه وسلم-:«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» فدل هذا الحديث على أن المولود ولد على فطرة الإسلام، التي هي فطرة السلامة والعفو والعافية التي تخلو من الشرك، ولما التقت وانسجمت مع العامل الخارجي صارت مثله، فتمجست الفطرة مع المجوسي، وتنصرت مع النصراني، وتهودت مع اليهودي، ولو بقيت على حالها بدون العامل الخارجي يكون صاحبها من أهل الفترة، وهذا لعدم انسجامه مع العامل الخارجي الذي هو من نفس النمط حتى يصير بها عبدا لله، وهذه هي الغاية الأولى من خلق الخلق وبعث الرسل.

الإنسان هو الذي يتمجس ويتهود كما في الحديث لا الفطرة، ولأن الفطرة هي التوحيد، قال الله -عز وجل-: « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(الروم: 30).

والتوحيد لا يتلبس بشرك، ولو بقيت على حالها يبقى الإنسان مسلما، لا من أهل الفترة، فأهل الفترة تمجسوا وتنصروا وهم جهّال لدين الله.

فلقد اتبع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ملة إبراهيم، بحيث أنزل الله عليه كتابا قال فيه-جل وعلا-: «تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» فكان كله وجله توحيد بما فيه توحيد العبادة وتوحيد الإتباع، الذي يقابله الثواب لمن أراد والعقاب لمن أبى، فدعا الناس إلى هذه الملة باللسان سرا أولا ثم أعلن، وبالسنان بدرا أولا ثم أثخن، وكان كل هذا بوحي من الله تعالى من أجل التبليغ، ثم الدفاع عن التبليغ، لقوله-صلى الله عليه وسلم-: « ألا من يعينني على أن أبلغ ما أمرني به ربي فإن قريشا منعتني أن أبلغ» لكون الله -تعالى- هو المكلِّف أولا لقوله: « يا أيها المدثر قم فأنذر» وقوله: «فاصدع بما تؤمر» وقوله:« ادع إلى سبيل ربك» وهذا لكي لا يكون للناس حجة على الله من بعدهم، وهذه هي الغاية الثانية من بعث الرسل... فالله -تعالى- بعث الرسل والأنبياء لتحقيق مسألتين:

1- تحقيق توحيد الله في عباده.

2- إقامة الحجة البالغة على المشركين.

ومن تأمل هاتين المسألتين تبين له أن المشركين كلما كثروا كانت عبادة المؤمنين أعبد، وكلما كثر المؤمنون كانت الحجة بالغة وأبلغ في حق المشركين.

أما كثرة المؤمنين وتأثيرها في بلوغ الحجة، فهذا من حيث الكم إذ يتظافرون على الدعوة فتنتشر أكثر وهذا أمر ظاهر، وأما إن كنت تقصد تأثيرها في الحجة بذاتها فهذا خطأ فادح، إذ يقتضي هذا أن الحجة بالكتاب والسنة ناقصة يقويها كثرة المؤمنين، ولم تكن حجة الأنبياء وهم قلة بين أقوامهم ضعيفة.

فعلمنا أن هذه الملة التي دعا إليها الرسول-صلى الله عليه وسلم– هي ملة الإسلام والإيمان التي بنيت على خمسة وتأصلت على ستة.

ثم ذكر رسول الله-صلى الله عليه وسلم–أن هذه الملة بعد وفاته ستفترق إلى طوائف عديدة إلى أن يبلغ عددها الثلاث والسبعين، كما قال: « ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: ومن هي يا رسول الله؟ قال: إلا ما عليه أنا الآن وأصحابي» فأوجب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-عليها النار لكونها شاقته فيما كان عليه هو وصحابته في زمنه، ولكنه لم يخرجها من ملته مع أنها وقع منها البعض في شرك التوحيد والبعض في شرك المتابعة.

حاشا أن تكون الفرق المسلمة الضالة قد شاقت الله ورسوله، لأن المشاققة هي كونها في شق غير شق الله ورسوله عمدا، كقوله: «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب» (الأنفال:13) وهذا عن أعدائه المحاربين للدين، فكيف يكون المسلم كذلك إذا تأول في نصوص تشتبه عليه في غير أصل الدين؟ أما إذا كان تحريفا دون شبهة فذلك شيء آخر.

وحاشاها أن تكون قد أشركت بالله، ولو أشركت لظهر الأمر، وبانت من المسلمين كسائر المرتدين، وقد وقع الخلط عندكم لظنكم بأن مخالفة السنة شرك في الإتباع، وأن تأويل الأسماء والصفات شرك في التوحيد، إن شرك الإتباع هو ترك شرع إلى شرع آخر أي هو ترك دين إلى دين آخر«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء»(الأعراف:03).

إن تأويلهم الأسماء والصفات جهل بها، ونحن نعلم أن أسماء الله وصفاته قد جهلها الصحابة كثيرا حتى ورد بها الخبر، وأنتم تقولون بأن هؤلاء خالفوا التوحيد بتأويلهم، لأنكم تعتقدون أن جهلها كجهل التوحيد، وتعتبرون التوحيد مما يمكن أن يجهله المسلم، وهذا ما لم يعرفه ديننا، وتعتبرون مالا يجهله المسلم هو كلمة التوحيد ككلمة بلا معنى وهذا تعطيل لدين الله لم يكن عليه رسول الله وأصحابه.

إن الخطأ في الأسماء والصفات لا يخرج المسلم من الإسلام، كما لم يخرج الفرق الضالة، أما الخطأ في الألوهية أو الربوبية فينفي الإسلام كما نفى عن قريش الإسلام وينفيه حتى عن المسلمين إن وقعوا فيه، ومن لم يقر بهذا فليس على منهج السلف الصالح ولا هو على دين الإسلام، سواء كان فردا أو أمة.

والتي نجت من النار ومن الفرقة هي الطائفة المنصورة التي في حقها قال -عليه الصلاة والسلام-: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي الله بأمره وهم على ذلك » وهذه الطائفة ما سقطت لها راية منذ أن توفي عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما اجتمعت على ضلالة، وكانت قدمها راسخة في العلم، غير أنها تصيب وتخطئ حتى لا يظن بها العصمة، لكن لا يلبث هذا الخطأ حتى يجيء من يصوبه، وهي مأجورة في خطئها إن شاء الله تعالى، وهذا هو منهج الحق ومن نحى نحوه إلى أن يعود هذا الدين كما كان في أول عهده لقوله -صلى الله عليه وسلم-: « ثم تكون خلافة على منهج النبوة».

فكانت هذه الطائفة الحقة البارزة التي لا تعرف بالزوال، والتي لا تأفل، لأن الفطرة السليمة لا تحب الآفلين، كما تحركت فطرة إبراهيم-عليه السلام-في البحث عن المعبود الحق، وقال –تعالى- في شأنه :«إني لا أحب الآفلين».

فهذه الملة حملتها هم الأعلام العدول لقوله -صلى الله عليه وسلم-: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

وهي الملة التي لا تقدر بعدد ولا بزمن، فلقد كان إبراهيم -عليه السلام- وحده أمة، ودعوته إلى ملته لا تزال إلى يومنا هذا تلبى كلما أذن في الناس بالحج، وهذا أكبر دليل على أن هذه الملة لن تغيب حتى تقوم الساعة، أما عنوان كتابك « الملة الغائبة» هي الملة التي بجانب هذه الملة الظاهرة صاحبة المسار الطويل البعيد المدى والطويل الأمد الذي بعدت به الشقة، الملة الغائبة سريعا ما تظهر وتنتشر، ثم سرعان ما تقهر وتنقشر، لكن بعد أن تترك آلامها وجراحها...

إن التعريض بدعوة التوحيد على أنها دعوة الخوارج الحرورية لِتَشَابُهٍ في الظروف أمر بعيد عن الحقيقة والموضوعية، إن هذه الدعوة لا يعرف بطلانها من صحتها بسرعة انتشارها أو بطئها لأن الدعوات أيا كانت معرضة لمثل ذلك، وإن انهزامها واضمحلالها والآثار التي تتركها ليس له أي دخل في المبدأ ذاته، وفي دعوات الأنبياء عبر العصور عبرة، وبقاء الحج ليس دليلا على ملة إبراهيم ولا على الاستجابة لدعوته إلى التوحيد، وإنما هو شعيرة من شعائره، وكان مشركو العرب يلبون هذا النداء وهم على غير ملته، وكذلك الحال اليوم.

لكونك لو كنت ترى أن الفرقة الناجية هي الغائبة ما كانت لتقول عنها غائبة ورسول الله-صلى الله عليه وسلم- يقول عنها ظاهرة، وهذا يعني أنها حاضرة، وما كنت لتريد إظهارها وهي لم تغب عن أرض الواقع.

فلو قلت أنها غائبة في نفوس أكثر المسلمين وأنا أريد أن أظهرها لهم، قلنا لك :الحجة ليست للغالب، ولكن الحجة بما قام به الدليل، والدليل قام بالظهور والوضوح والحضور، وما غاب عندك وحضر عند الباقين لن يكون غائبا على الإطلاق، لكونه ظاهرا في الوجود وخارج الذهن، فغيابه عندك لا يجعله غائبا عند الحاضر، كما أن الحاضر لا يجعله حاضرا عند الغائب إلا في حال الانسجام والميل إلى أحد مقومات الغياب والحضور، فإما أن تكون غائبة عند المنسجمين أو حاضرة على حسب المقومات والدوافع الأساسية لإيجاد الأمرين...

ولو كنت تريد أن تقول أنك تريد أن تظهرها في نفوس من غابت عندهم لكان له وجه في البيان.

المقصود بغياب الإسلام هو غيابه عن حياة هذه الأمة التي تدّعي اتباعه، أما قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، فقد ذكر بقاءهم على الدين لا انتصارهم على غيرهم، ومن ظن خلاف ذلك فهو يعيش في أوهام، فالظهور هو بالحجة لا بالتمكين، قال –تعالى-: «بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون» (القصص: 25) فأنت تعلم أنه حتى العقيدة التي تتبعها أنت وتعتقد أن أهلها هم الفرقة الناجية لم تزل عبر قرون في ضعف.

وغياب الإسلام يعني عدم حضوره في زمان أو مكان معين، لا على الدوام، ولا في كل مكان، وكيف أقول ذلك وأنا أعتقد بأني مسلم؟! فالحاضر عند أحد غائب عند غيره، ولكن لا حكم للنادر، إنما أقصد غيابها عند الذين هم هدف هذه الدعوة، وهو المعنى المتبادر للذهن، أريد أن أقول لهم: أنتم مخطئون، لقد أخطأتم دين نبيكم عليه الصلاة والسلام.

ولو قلنا أنها جديدة فهي جديدة عليهم ولكنها قديمة في مصدرها، ولو قلنا أنها ميتة لأخطأنا لكونها باقية في مصدرها وهو الكتاب والسنة، ثم بقاء أهلها قلوا أو كثروا، فالميت لا ترجى عودته، أما الغائب فترجى عودته.

أرأيت الإسلام قبل البعثة أكان حاضرا أم غائبا؟ فإن قلت:كان غائبا قلت: كان هناك حنفاء موحدون من العرب وغيرهم، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:«وإن الله-عز وجل- نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» (رواه مسلم) وكذلك هم اليوم بقايا وأفراد مغيبون، وإن قلت: كان حاضرا قلت:هو حاضر عند أهله فقط غائب عن المجتمع، لكن مادمنا نختلف في معنى كلمة «المسلمون» فأنتم ترونهم مليارا ونحن نراهم أقل بكثير فلا نتفق حول غياب الإسلام بين الناس.

لقد كان الإسلام موجودا قبل البعثة ولم يكن حاضرا ظاهرا، وإن الله ليمقت أهل الأرض اليوم كما مقتهم بالأمس إلا هؤلاء البقايا من أمة محمد، وهم استثناء، والإستثناء لا حُكم له ولا يُنظر إليه، كسائر الأقليات في البلدان، والأكثر له حُكم الكل كما تقول القاعدة، فنحن لا نرى المسلمين الذين تتحدثون عنهم، ولعلك توافقني إن قُلت أن هذه الملة بهذا المعنى –سواء اقتنعت بها أو لم تقتنع- لا زالت غائبة.

لكن بشرط أن تسلك مسلك الدعاة إلى الله ومنهج الأنبياء، ولكنك نبذت هذا المسلك وراء ظهرك، فأردت أن تسلك مسلك الخلفاء والأمراء في إقامة الحق، والفصل بين الحق والباطل والكفر والإيمان.

لم أتوقع منك هذا الكلام، أن تجعل أصلاً من أصول التوحيد وبديهياته وهو التمييز بين الكافر والمؤمن من عمل الحاكم المسلم وهو ليس من السياسة الشرعية كإقامة الحدود مثلاً، وإنما هو عقيدة كل مسلم ابتداء، أترون أن إسلام الصحابة كان صحيحاً لو اعتقدوا بأن اليهود والنصارى إنما هم على دين موسى وعيسى حقاً؟! فكيف يكون مسلماً من يثبت الإسلام لقوم خالفوا دين محمد عن علم أو عن جهل كما خالف اليهود والنصارى والعرب قديماً دين أنبيائهم عن علم أو عن جهل؟! على مثل هذه القواعد تبنى عقيدتنا، أما أنتم فوجدتم أنفسكم على دين فاستدللتم له.

فالملة الغائبة شبيهة بما كانت عليه الخوارج في عهدهم و في عهد أفراخهم، إذ أن لب الدعوة عندهم وغاية الإيمان تكفير الكافر على إطلاقه، ومن رأى هذا الجانب عندكم حسبه حقا لأن الله -تعالى- قال: «فمنكم كافر ومنكم مؤمن» وقال: «إما شاكرا وإما كفورا».

لكن من تدبر حقيقة تكفير الكافر عندكم لكان هو المسلم الذي جهل العقائد والشرائع.

أين وجدت هذا في ثنايا الكتاب وأنا قد أوضحته مراراً وتكراراً حتى لا يشتبه على الناس؟ أم هي التهمة نفسها لمجرد التهمة وتنفير الناس بكلمة الخوارج والفتنة؟ إن الخوارج قالوا أن المسلم إذا كذب – مثلاً- فهو كافر، ونحن نقول: هو مسلم عاص، لكن نقول أن من يدعو غير الله كافر، فهل وجه الشبه في مجرد التكفير أم فيما يكفر به؟

ولما قلنا أن ترك شرع الله والتحاكم إلى شرع الطاغوت كُفر قلتم: هذا كقول الخوارج: لا حُكم إلا لله، إن الخوارج قالوا كلمتهم لما احتكم علي ومعاوية إلى أبي موسى وعمرو بن العاص ليحكما بكتاب الله لا بكتب الطاغوت، وهذا ما يفسر ضحالة فقههم، فقال لهم علي: « حُكمَ الله أنتظر فيكم» وقال: « كلمة حق يراد بها باطل، نعم، إنه لا حُكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر» لكن لما احتكم الناس إلى كتب الطواغيت وقلنا لهم أن الحكم لله وحده، قلتم: هذا كقول الخوارج! أليست هذه ضحالة في التفكير وسطحية ينكرها حتى الخوارج الأولون، والله يشهد أن ما وقعوا فيه أخف مما وقعتم فيه، والفرق بينكم وبينهم كالفرق بين الكفر والبدعة التي لا تخرج من الإسلام.

وهم أكثر الخلق في ملة الإسلام، فيترتب عليها تكفير الشعوب الإسلامية بصفة عامة لفشو الجهل المركب والبسيط في عقائدهم وعباداتهم.

وأنا أسألك: ما المانع من أن تكون هذه الشعوب كافرة؟ بالكفر طبعاً، لا بجهل الشرائع، إنه لا دليل لكم إلا الواقع، وهو دليل كل أمة بُعث إليها نبي، كاحتجاج من تدعوه إلى التوحيد مستنكراً: إذا قلت بقولك فهذا يعني أنني كافر!

لكون اقتضاء الدين عندكم هو تكفير الكافر، وهذا ليس هو الغاية المنشودة، ولكن اقتضاء الدين هو تحقيق عبادة الله، وإقامة الحجة على المشركين لينتهي بهم إلى الجنة أو إلى الجحيم.

كلمة «اقتضاء» لا تعني الغاية والهدف، ولكن تعني حتمية وجود الشيء لإيجاد غيره، فهو شرط له، ومن قال أن غاية الدين هي تكفير الكافر أو حتى الاعتقاد بإسلام المسلم؟! فما هو إلا ضابط وحدّ يعرف به من هو من أهل هذا الدين من غيره، وإنما غاية الدين هي تعبيد الناس لله وحده.

فإن النبي -صلى الله عليه وسلم– بعث بهذا الدين ليقيمه في الأرض، بحيث لا يقام إلا بإقامة العباد له، ومن جهة أخرى ليقيم الحجة على مخالفيه، وفي بداية الدعوة لإقامة هذا الدين كان يدعو لتحقيق الإيمان، وهو الإيمان بالله، بحيث لا يتحقق إلا بأربعة وسائل، وهي معرفة الله والعلم به والدعوة إليه ثم الصبر على الأذى فيه، فإذا بلغ آخر هذه المراتب إيمانا واحتسابا كان مؤمنا ونبذ الكفر وراء ظهره، وكل من آمن بالله ورسوله-صلى الله عليه وسلم-علم بأن مخالفه كان كافرا مشركا.

هذا هو المفروض لكنه كلام نظري مع الأسف الشديد، فأنتم تعتقدون بأن الناس مسلمون أصلا، فتدعونهم للانتقال من الإسلام إلى الكفر وهم مسلمون في نظركم من قبل ومن بعد، وهم يعبدون القبور ويتحاكمون إلى الطاغوت بذريعة الجهل التي لم تقدروا على الاستدلال عليها.

فإن كانوا مسلمين فإن دعوتكم إياهم إلى التوحيد باطلة أو زائدة عن المطلوب، فهم من أهل الجنة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تدخل الجنة إلا نفس مسلمة» (رواه مسلم وأحمد والترمذي).

وهم قد حققوا الإسلام بقولهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي غنى عن دعوتكم، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا.

والنبي -صلى الله عليه وسلم– يعلم أن الذين بعث إليهم كانوا جميعا على الكفر سواء بعلمهم أو بجهلهم، ولو كان اقتضاء الدين تكفيرهم لكان يكفيه أن يخاطبهم بأنهم معشر الكفار، أو كان يكتفي أن يكفرهم مع العلم أنه يعلم أنهم على الكفر في نفسه دون مخاطبتهم، لأن تكفير الكافر لا يقتضي إسماع وإبلاغ كل واحد بأنه كافر أو هو على الكفر، لأننا نؤمن بكفر فرعون وقارون وآزر والنمرود و...وهم الأمم السالفة .

كما أن تكفير الكافر لا يعني إسماعه بأنه كافر كذلك لا يعني من جهة أخرى إسماعه بأنه مسلم أو الاعتقاد بأنه مسلم.

وأن موسى-عليه السلام- لما بعثه الله إلى فرعون قال له:« اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» فإن موسى-عليه السلام-علم وعرف وأيقن بطغيان فرعون، يعني أنه علم بكفر فرعون، وهذا من موسى تكفير لفرعون، لأن الله أقره على ذلك مع العلم أن كفر فرعون أكبر لكونه ادعى الألوهية لقوله - تعالى-: «ما علمت لكم من إله غيري».

مع كل هذا لم يقم من الدين شيئا لأنه ليس من الأسس التي يقام بها الدين، فعلمنا أن الدين يقوم بمقتضى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة واللين وإقامة الحجة والبرهان والبينة، ليحيى من حي عن بيئة و ليهلك من هلك عن بينة.

وهذا الذي لمسناه في دعوته -صلى الله عليه وسلم- حيث كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وأقره عليه الله –تعالى- بقوله: «ولو كنت فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك»، وهذا لكونه أرسل« رحمة للعالمين».

هذا دليل عليكم فموسى -عليه السلام- عامل فرعون بلين ويسر مع أنه يعتقد بكفره قبل إقامة الحجة، لأنه عرف كفره من قوله وعمله، وأنتم تقولون بأن الحكمة تقتضي عدم الاعتقاد في كفر الكفار، أي أن تكفير المدعوين غلظة وفضاضة، وأن التيسير والرحمة إدخالهم في مسمَّى المسلمين!

فعلمنا أن إقامة الدين ليس هو تكفير الكافر، وإنما له وجه في الشك في كون الكافر كافرا بحيث ديننا دين اليقين، وليس دين الشك، واليقين لا يتحقق إلا بإقامة الحجة.

وكذلك اقتضاء الدين مخالفة الكفار والمشركين، لأن الحجة إذا قامت على اليهود والنصارى على كونهم على غير دين الله الحق الذي بعث به جميع الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- اقتضى على المؤمنين مخالفتهم في عقائدهم وشرائعهم وعباداتهم، وهذه المخالفة في الظاهر لأن التشبه

بهم في الباطن لا يبقيهم على إيمانهم، لأن التشبه بهم في الباطن في القضايا الظاهرية لا يخرجهم من ملة الإسلام، بل يخشى أن تقودهم لاحقا إلى التشبه بالقلوب الذي يبدل الأصول و يدنسها، وهذا التشبه المظهري قد يخرج صاحبه من الملة لاحقا، وقد لا يخرجه من الملة، لكنه يأثم لكونه سار على نهجهم، فمثلا من قوله -صلى الله عليه وسلم-: «لتتبعن سنن من كان قبلكم...» هذا الإتباع لا يوجب الكفر والشرك إلا إذا انتهى صاحبه إلى حد الشرك والكفر من بعد إقامة الحجة بالحكمة والموعظة الحسنة.

التشبه بالكفار الذي يخرج المسلم من الإسلام ويبدل الأصول ويدنسها –كما تقول– قد يكون باطنيا وظاهريا أيضا، فمن عبد الصليب أو اتبع مذاهب العلمانية فهو كافر بمجرد التشبه بهم في الظاهر من القول والفعل، بخلاف من تشبه بهم في اللباس مثلا، والأمر الأول أولى بالإيضاح من هذا لاسيما اليوم، ولا يصح الجمع بينهما فنقول أنه لا يكفر بالظاهر إطلاقا حتى يعتقد بالقلب، فالكفر لا ينحصر في الباطن.

كما هو الشأن بالنسبة لفاحشة الزنى فإن الله -تعالى- قال: «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا»، فدلت هذه على أن الله لم يحرم الوقوع في فاحشة الزنى فحسب بل حرم طريقها، لأنها حتما ستؤدي إليه أو ربما ستؤدي إليه على أي حال فسبيلها سيء، فمن يتضح على من سلك سبيلها لا يجب في حقه الحد إلا إذا وقع في فاحشة الزنى، وهذا ما بينه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في قوله: «العينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما اللمس والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

فالعين واليد من وسائل الزنى فإن من نظر إلى حرام ولمس حراما لا يترتب عليه الحد... ومن مارس هذه الوسائل سواء جهلا بأحكامها أو شهوة أو تقصيرا أو ضعفا عن مقاومتها لا يكون ممن يقام عليهم الحد، هذا بالنسبة لهذه الفاحشة التي هي من أعظم الذنوب بعد الشرك، فكذلك بالنسبة للكفر له سبيل تؤدي إليه، فظاهرها يكون كفرا أما باطنها قد يكون كفرا وقد يكون إسلاما، فليس كل مسلم سلك سبيل الكفر يكون كافرا، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: « بين العبد والكفر ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر».

فالمتأمل في هذا الحديث يجد أن الكفر الذي أطلقه الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو نفس الزنى التي أطلقها على العين واليد، بحيث لا يكون تارك الصلاة كافرا كفرا مخرجا من الملة بل سلك سبيل الكفر، لأنه بعد أن هانت لديه هذه الشعيرة وهذا الركن الذي هو أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين يخشى عليه إذا طال عليه العهد والأمد على هذا الحال أن تهون لديه جميع الشرائع أو يعتقد بعدم صلاحيتها، فيكون قد وقع الكفر عليه بعد أن انعدم لديه الأصل فيها و هو الإيمان بحقيقتها.

لا نريد إضاعة الوقت في الحديث عن أمور فرعية أكثرها لا نختلف فيه، ولكن الأمر أعظم وأدهى، والسؤال هو: هل أن دعاء غير الله و اتباع مذاهب الطاغوت وغير ذلك مما هو واقع قد يؤدي إلى الخروج من الملة وقد لا يؤدي إليه أم هو نفسه الخروج من الملة؟

أو يأتي من بعدهم جيل يتوارثهم في أفعالهم إلى أن يتحقق قوله -صلى الله عليه وسلم-: « يأتي قوم من أمتي لا يعرفون من الدين إلا كلمة لا إله إلا الله فيقولون سمعنا آباءنا يقولونها فقلنا مثلهم» مع ذلك ذكرهم ضمن أمته، وليس هذا منه تحقيقا لعقيدة المرجئة وإنما هذه ضوابط العذر بالجهل.

الحديث أعرفه بهذه الألفاظ: عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة وليسرى على كتاب الله -عز وجل- فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها» فقيل لحذيفة : ما تغني عنهم «لا إله إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه، فرددها عليه ثلاثا كل ذلك يعرض عنه، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: تنجيهم من النار، قالها ثلاثا» (رواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي) .

فالحديث ذكر جهلهم بالصلاة والصيام لا بالتوحيد، ولو جهلوا أن الله يعبد وحده لذكرها قبل الصلاة، فقولهم: لا إله إلا الله، ينجيهم من النار إن لم يشركوا بالله شيئا، أما الكلمة كلفظ فقط فلا، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة» (رواه البخاري ومسلم) أما أنتم فتقولون: من أشرك بالله جهلا و قال: لا اله إلا الله، دخل الجنة، إن التابعين اختلفوا في الشرائع

التفصيلية كما في هذا الحديث، فتعجب هذا الرجل من دخول الجنة بلا صلاة، كما ورد عن الصحابة أنهم قالوا: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فرسهم وكانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله –تعالى-: « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» إلى آخر الآية، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم» (رواه أحمد) ولم يختلفوا فيما دهانا اليوم ولم يعرفوه، إن الخلاف اليوم خلاف بين المسلمين والكفار.

فعلمنا من جهة فاحشة الزنا أن المرأة التي جاءت حبلى من الزنا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليقيم عليها الحد فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم– في التماس الأعذار لها وصرفها بعيدا عن هذا الحكم، ليس شفقة عليها، ولكن لعدم وجود الشهداء لديها، فاخذ يلتمس لها الأعذار ويماطلها الحكم، ولكنها أصرت إلا أن يقام عليها الحد، وكان ذلك بعد ثلاث سنوات تقريبا، وكذلك بالنسبة إلى ماعز الذي جاء هو بنفسه لإقامة الحد، فأخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يلتمس له الأعذار، ولكنه أبى إلا أن يقام عليه الحد، ولا يكون هذا إلا مع من جاء بدون شهداء، وحتى من جاء به الشهداء ينظر في حالهم وحاله وأسباب الوقوع، وكل هذه الخطوات الملتمسة إلا من أجل إقامة الحد حتى لا يظلم فيه أحد، فهذا من جهة الزنا ومن قام بها عمدا، فكيف إذًا عند تكفير الكافر ومن قام به جهلا ؟ فمن باب أولى أن يلتمس لهم الأعذار وتبين لهم الأدلة وتقام عليهم الحجج، فمن أصعب الأمور في ديننا تكفير من مارس الكفر من المسلمين.

هذا إذا كنا نتكلم عن الكفر الواقع بين المسلمين أصلا، فيخرج أحيانا رجل ضال بفكرة ضالة أو كلمة قد لا يقصد معناها، ومعناها كفر إذا قصده، فنستفسر عن قصده مثلا أو تأويله لها، فكفره يثبت بعد جحوده وإصراره، وقد نجد أحدهم يقبّل قبرا مثلا فلا نعتقد في كفره مباشرة بل نسأله عن قصده، فقد يكون ذلك حبا لصاحب القبر لا عبادة له.

أما أن نجد أمة تستفحل فيها عبادة القبور فهو أمر عادي عندها فهذا لا يصح الاستفسار عنه فهم كفار أصلا، فهؤلاء لا يبوء مكفرهم بالكفر بل تارك تكفيرهم هو الكافر إذ من مقتضى الإسلام التمييز بين الطائفتين .

فلا وجه للشبه بين نفي الإسلام عن الكافر الأصلي وإقامة الحد على المسلم، أما المرتد فنتبيّن مقصده، وإن أقر بالردة و تاب نعتقد في كفره وتوبته ولا يقام عليه حد الردة، فالحد حتى وإن ثبت وعطلناه نكون عصاة، أما تكفير الكافر فيخرجنا من الملة إن تركناه.

والمرتد إذا تاب لا يأتي طالبا إقامة الحد بل يعلن توبته وكفى، ومقابلتك بين من أتى الفاحشة عمدا والكافر جهلا فيه مغالطة لأننا لم نقل أن الكافر الجاهل يقام عليه الحد، لكننا نريد تصنيفه، مثل الزاني عن جهل فيوصف بذلك الوصف ولا يعاقب.

فدعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ليست دعوة التكفير بل هي دعوة التبشير والتحذير ودعوة التيسير، كما أن الغاية ليست في التكفير، فإنه -صلى الله عليه وسلم- لما بعث كانت قريش على شيء من دين إبراهيم عليه السلام، لكنه مسخ بعبادة الأوثان، وكانت حين ذلك اليهود والنصارى على شيء من دين أنبيائهم ولكنه مسخ بعبادة أنبيائهم، فلما رسخ فيهم الكفر وذر قرنه ورسخت جذوره بعث الله إليهم محمدا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليعيد لهم الحق الذي ضلوا عنه السبيل، وليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم بالحق، لا ليطلق عليهم أسماء الكفر والشرك ليظهر اسم الإيمان والإسلام .

أين أنت من تبرئه من دينهم وتبرئتهم من دينه لما أرادوا الخلط بين الدينين؟ فواجههم بـ:« قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد و لا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم و لي دين» (الكافرون)، وهكذا فعل الناس اليوم فخلطوا بين الإسلام والشرك، فواجهناهم بذلك، لأنه لا يقوم توحيد أبداً مع هذا الخلط الخبيث بين الدينين والأمتين، مع أنهم لم يكونوا ينتسبون إلى دينه، فكيف نسكت عن هذا اليوم؟! وأين أنت من تبرئته قريشاً والنصارى واليهود من دين أنبيائهم لما ادعوا الانتساب إلى دينهم حتى يسلم الدين ويصفو في الأذهان؟ «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» (آل عمران:67) «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

بن مريم» (المائدة:72) ثم بعدها «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (الكهف:29) وهم كفارٌ غير مؤمنين قبل الدعوة وبعدها إن لم يستجيبوا.

ولكن دعاهم لحقائق الإسلام والإيمان فمن استجاب منهم كان مؤمنا ومن جحد منهم كان كافرا.

هذا مجرد كلام، أما الواقع فيقول بأنكم تدعون الناس لحقائق الإسلام والإيمان، فمن استجاب منهم كان مؤمناً ومن جحد منهم كان مؤمناً، لإقراركم العذر بالتأويل في التوحيد، هذا إن دعوتم إلى شيء من التوحيد، فأما الأكثر فإنهم يدعون إلى إحياء السُنة وإماتة البدعة وإحلال الطاعات مكان المعاصي، ولا ذكر للكفر ولا إنكار، هذا إن آمنوا أصلاً بأنه كفر، وإلا فإنهم يدعون إليه ويهونون من أمره.

فبعد أن أقيمت الحجة بالتبليغ والصبر على التبليغ الذي رسخت جذوره في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، فصار المجتمع قسمين، قسم مؤمن وقسم كافر، بحيث لا يجوز الزواج من بعضهم البعض، ولا حتى المجاورة والمساكنة، لقوله –صلى الله عليه وسلم-: «أنا بريء ممن أقام بين ظهراني الكافر».

فبعد أن انقسم المجتمع إلى قسمين صار من الواجب على المجتمع المؤمن أن يعد القوة الكاملة من أجل تبليغ هذه الرسالة إلى كافة الأقطار والأمصار، فمن استجابوا كانوا تحت إمرتهم، ومن عاندوا وجحدوا قوتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ليصبحوا هم المستضعفين في الأرض، وليدخلوا في ذمة المسلمين، هكذا قام دين الله وانتشر في ربوع الأرض، وليس بالتكفير الذي نخر في الأمة حتى النخاع .

وكذلك لم يقم دين الله بإثبات الإسلام للمشركين، ومن قال بأن دين الله يمكّن له بتكفير الناس وكفى دون دعوة وجهاد؟

ومن أراد أن يوفق بين الجاهلية الأولى والجاهلية الحاضرة أو ربما يجعلها أشد من الأولى فقد مزج بين الحق والباطل، لأن الجاهلية الأولى أهلها ما كانوا يعبدون الله البتة.

من أين لك بأن أهل الجاهلية الأولى من العرب أو غيرهم لم يكونوا يعبدون الله البتة؟ يقول الله – عز وجل- مثلاً: «يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً» (المائدة:) نهى الله المسلمين في بداية الأمر عن التعرض للحجاج المشركين، وذكر أنهم كانوا يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً، وعظموا بعض حرماته كالحرم والشهر الحرام واعتقدوا بأن الله في السماء وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت، وكانوا يدعون الله وحده أحياناً لاسيما في الضر، وفي هذه الأمة التي تسمونها بالمسلمة من يدعو غير الله في السراء والضراء، وبصراحة لقد كنت أود أن نحصر الخلاف بيننا في أقل من هذا.

ولم يكن فيها علماء يبلغون دعوة الأنبياء .

عدم وجود العلماء لا دخل له في كونهم في جاهلية، مع ثبوت وجود بعضهم، فوجود الأنبياء بين أقوامهم لا يعني أنهم ليسوا في جاهلية، لأن أفعالهم ومعتقداتهم هي التي تصنع الجاهلية، وقد جاءهم النبي ونشر دعاته في الأقطار، ومع ذلك فإن من لم يستجب له فهو على جاهلية، بل ازداد كفراً بعد علمه «وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً» (المائدة: 64) لكنكم تعذرون أمتكم لعدم وجود العلماء الذين يبلغونها وتؤثمون الأمم الأخرى لذات السبب وهو عدم وجود العلماء!

وانحطت أخلاقهم واستحلوا الحرمات، أما جاهلية هذا الزمن ففيها من يعبد الله على حق، والناس فيها أقسام: قسم منهم حاله كحال الصحابة، وهم خاصة الله وأهله أكثرهم العلماء، وقسم منهم حاله مقتصر على إتيان الفرائض فقط ومُقصر في باقي الطاعات وهو ثلث هذه الأمة، وقسم منهم ظالم لنفسه بحيث ترك الصلاة واتبع الشهوات لكنه لم ينعدم منه أصل الإيمان، فهو يؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين والقضاء والقدر ويؤمن بالحلال والحرام ويؤمن بالفرائض.

لو آمن أحد بكل ما ذكرت واحتكم إلى الطاغوت أو عبد القبور ألا يكون كافراً؟!

ولكنه أشرب في الشهوات وغرته الحياة الدنيا.

أهذا كل ما في الأمر؟ ترك للصلاة وشهوات متبعة، أين الكفر إذن؟! إن فساد دعوتكم إلى السنة نابع من عدم تشخيصكم المرض، وذلك نابع من عدم تحقيقكم الإسلام، ولو أسلمتم لاتضح لكم منهج الدعوة بكل سهولة، اقرأ سيرة أبي ذر الغفاري والطفيل بن عمرو الدوسي وغيرهما لما أسلموا ورجعوا إلى أقوامهم دعاة، وهم لم يعرفوا صلاةً ولا صياماً ولا حلالاً ولا حراماً.

فهل هذه الجاهلية مثل الجاهلية الأولى؟ وإن كانت أشد لديكم من الأولى فلابد أن يكون الداعي إليها بغى إلى الحق أعظم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه سيواجه قوما أعظم ممن واجههم النبي صلى الله عليه وسلم، بما يلزمه أنه سيكون أشد بلاءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الخلط العظيم ممن جعل جاهلية هذا الزمن أشد من جاهلية قريش.

إن الله لم يكلفنا بالتمييز بين الجاهليات، هذه شديدة وهذه أشد، ولم يكلفنا بالتمييز بين الكفار، هذا كافر وهذا أشد كفراً، بل أمرنا بالتمييز بين المسلمين والكفار وكفى، وإلا فلسنا مسلمين إذا لم نفرق بين الأمتين، وسواء كانت جاهلية اليوم أشد أو الأولى فكلها جاهلية، ويجب أن نتعامل مع أهلها كما تعامل النبي-صلى الله عليه وسلم- مع الجاهلية الأولى، وكون هذه الجاهلية أشد لا يعني أننا سنبتلى أكثر من النبي صلى الله عليه وسلم، بل الإبتلاء تابع لصلابة دين المؤمن، كما قال–صلى الله عليه وسلم-: «أكثر الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر إيمانه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» (رواه البخاري وابن ماجه والدارمي والترمذي).

والبلاء ليس التعذيب والقتل فقط، وإنما هو افتقاد النفس لكل ما تحبه من أشياء مادية ومعنوية، ولم يكن ابتلاء الصحابة مثل ابتلاء رسول الله وهم يعيشون معه ويواجهون واقعاً واحدًا، ومن هنا يظهر أن القياس على الابتلاء خاطئ، وإلا لوجب علينا أن نهوّن ممّا قد يقع من الكفر -وإن كان أشدّ من كفر قريش- حتى لا يقال أننا ابتُلينا كما ابتلي النبي صلى الله عليه وسلم، أو أن نتهاون في الدعوة حتى لا نبتلى مثله، ولكن الله يعلم أننا مهما قدمنا فلن نقدم مثل أنبيائه، فاتقوا الله وانظروا بما تحتجون.

ورأيتم أن كفار قريش ومن معهم من اليهود والنصارى كانوا مشركين برغم جهلهم لتوفقوا بينهم وبين من وقعوا في الشرك والكفر من المرجئة والشيعة والصوفية والمقلدة لجهالتهم الحق، وأنتم تعلمون أن الذين وقعوا في التشيع هم أكثر أهل الشام، والذين وقعوا في التصوف هم أكثر أهل المغرب، ومن وقعوا في الإرجاء والتقليد هم أكثر العوام من الناس فهذا يقتضي منكم تكفير الشعوب بأسرها مما جعلكم ترون أن الملة غائبة.

نعم، لماذا لا يكون جهل هؤلاء وأولئك سواء؟ أليسوا كلهم يشركون بالله على جهل؟ سواء كانوا أفراداً أو أمة أو البشرية كلها، ألم أقل لك أن الواقع هو دليلكم الأكبر؟ ولا يمكن أن تفرض هذه الشعوب مفهومها للإسلام، لأن الدين دين الله.

لكن كفر قريش نخر قلوبهم حيث اعتقدوا أن العبادة للأصنام بحق، ولا ينبغي أن تكون لله وحده من دونهم، فلذلك قالوا:«أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب» فتعجبهم من توحيد الإله لدليل على أنهم أشركوا بحق، بحيث لم تبق عبادة على وجه الأرض إلا كانت في حق الأصنام، والتي بقيت لحالها انسلخت من صفائها الذي يجعلها على الوجه اللائق، أما عدم إيمانهم بربوبيتهم فما أدخلهم في دائرة الإيمان، لكون الغاية التي خلق الله لأجلها الخلق انعدمت في حقه وصارت في حق غيره، لأن الربوبية لا يكفر بها إلا الدهريون والملاحدة، ولأن من كفر بالربوبية لا يمكن أن يكون موحداً في الألوهية.

فهل كفار قريش الذين عبدوا الأوثان سواء ومن وقعوا في شرك القبور؟!! نقول: نعم، وقعوا في عين الشرك، لكن ليس كحال قريش لأنهم لم يمارسوا العبادة جلها مع القبور، بل كانوا يدخلون المساجد ويصومون ويحجون ويزكون ويتصدقون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

هل تؤمنون فعلاً بأن عُبَّاد القبور أشركوا بحق؟ وهل الشرك الحقيقي هو صرف كل نوع من أنواع العبادات لغير الله؟ ولو أن هذه الأمة دعت القبور فقط ولم تتمسح بها ولم تذبح لها ولم تعتقد فيها الربوبية أكثر من قريش ولم تدعها في السراء والضراء أكثر من قريش، ألا تكون بنوع واحد من الكفر كافرة؟ فما هي حجتكم على أنها لا تكون مشركة حتى تمارس العبادات جلها أو كلها مع القبور؟ وأنت تعلم أن الرجل المسلم قد يكفر بكلمة واحدة يخرجها من فمه أو تصرف واحد، ولا تنفعه صلاته طول حياته إن لم يتب من ذلك الكفر، وذلك مع خشوعه في الصلاة وقيامه الليل وحرصه على الأركان والسنن الظاهرة والباطنة وجهاده الكفار ودعوته إلى شيء من الدين، فبأي كتاب وبأية سنة تفرقون بين كفر وآخر وبين كافر وآخر؟

والجانب الشركي الذي وقعوا فيه هو بسبب جهلهم لدينهم وضعف إيمانهم وقلة علمائهم، لأنه فيما مضى من الزمن كان أكثر الناس على هذا الحال، ولما سمعوا بدعوة العلماء إلى نبذ الشرك في هذه

القبور انصرفوا عنها وتابوا إلى الله وكفروا بها، وأيقنوا أنها ظلم وجور بدون أن تقام عليهم حجج أو أن تقدم لهم معجزات أو أن يبعث لهم رسول، فهل يكون هؤلاء سواء مع كفار قريش؟ لكن بقيت فئة قليلة بين الشعوب من تؤمن بهذه الشركيات وهي لم تصلها دعوة الحق، فمن وصلتها دعوة الحق وأقيمت في حقهم الحجة وأبلغوا البينة بالموعظة والحكمة كانوا بعد ذلك مشركين يتبرأ من حالهم وإلا فلا، إلى أن تقام عليهم الحجة حتى لا يعذروا بجهلهم، وعلى هذا يتنزل كل من وقع في هذه الشركيات والكفريات من المقلدة والمرجئة والصوفية والشيعة.

وكفار قريش واليهود والنصارى ألم يكفروا بعد أنبيائهم بسبب جهلهم لدينهم وضعف إيمانهم وقلة علمائهم ووجود أئمة السوء وغيرها من الأسباب؟ أم أنهم اجتمعوا يوماً واتفقوا على الكفر؟! ثم إن استجابة الناس للتوحيد لا تدل على أنهم كانوا مسلمين من قبل، بل تدل على كفرهم لأنهم انتقلوا من دين إلى آخر، سواء كان ذلك بسرعة أو ببطء، فإن أبا بكر وعليّاً وخديجة وكثير من الأنصار قد آمنوا بمجرد كلمات من النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الأعراب قد آمن بمجرّد رؤيته فعلم أنه ليس بوجه كذاب، فهل كان هؤلاء مسلمين قبل إسلامهم؟! ثم إن القول بأنهم يؤمنون بمجرد دعوتهم يخالفه الواقع، هذا إذا كانت الدعوة دعوة توحيد حقيقة فإنهم ينفرون منها ويحاربونها، فادعهم إلى ترك ما هم عليه من كفر وسترى عداوتهم، أما أن تدعوهم إلى الصلاة والأخلاق فإن الكثير منهم يستحسنون ذلك، لكن الإسلام بريء من هذه الدعوة.

وترون أن العلماء تركوا دعوة الحق بتكفير الكافر وعقيدة الولاء والبراء حتى برز الكفر في أحشائهم، فهذا منكم تعدٍّ على قوله-صلى الله عليه وسلم-:« يحمل هذا العلم...» وقوله:«لا تزال طائفة من أمتي...» .

الإنكار على العلماء الذين تركوا دعوة التوحيد بل تركوا التوحيد ليس مخالفاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: « يحمل هذا العلم...» وقوله: « لا تزال طائفة...» لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يقصد هؤلاء العلماء، فليسوا بالعدول ولا الطائفة المنصورة، بل هم الغالون المبطلون الجاهلون، فالعدول ليسوا هم الموفقون بين الإسلام والواقع، ولا كل من يقف بين صفين يعتبر معتدلاً، ونحن نؤمن بوجود العدول والطائفة المنصورة، وليس انتفاؤها في حق هؤلاء المشتهرين يعني انعدامها في غيرهم، وإن لم يعرفهم الناس، أو لم يسمعوا لهم.

فإن هذه الأمة تحتاج إلى من يوقظهم من غفلتهم ويبعث فيهم روح الاجتهاد في الدعوة إلى الله والصبر عليها، والدعوة عليهم لابدّ أن تكون بالوجه السليم، إلى أن يظهرها الله أو يتبين لك أنهم أعداء الله، وهذا نادر في جهة الشعوب المسلمة لكونها تحتاج إلى من يحيي عزيمتهم التي لا زالت كأصل في قلوبهم.

لماذا تقابلون بين الدعوة ونفي الإسلام عن الكفار كأنه إذا وقع أحدهما انتفى الآخر؟! هل ترك أنبياء الله الدعوة أم تكفير المدعوين؟ إن المشرك مشرك سواء كانت عزيمته متحركة أو خاملة، وسواء كان على استعداد لتقبل الإسلام أم لا، ونحن نؤمن بأن التبرؤ من صنيعهم وتكفيرهم ركن يبنى عليه توحيدنا، ولسنا مستعدين للتنازل عن مبادئ الإسلام لسواد عيونهم، ومع ذلك فنحن لا نتكلم عن التكفير حتى نوضح الكفر ونربطه به، ونبين للناس أنهم ما داموا على ذلك الكفر فليسوا بمسلمين، وأن عليهم أن يدخلوا في الإسلام حقيقة كما أراده الله لا كما أرادوه لأنفسهم، ونبشر ونيسر ونجادل بالتي هي أحسن، ولا تناقض في ذلك.

ثم إن الإيمان هو حقيقة قول وعمل، وهو تصديق بالقلب ونطق اللسان وعمل بالأركان، لكن ليس انتفاء العمل يوجب انتفاء القول أو التصديق، حتى ولو كان هذا العمل ركناً من أركان الإسلام، لأن ديننا يقوم على الأصول ومن حرمها حرم الوصول، ومن هنا خرجت الخوارج لعدم تأصيلها الإيمان، فهي فهمت أن الإيمان كقولٍ وعملٍ فهماً ظاهرياً، فلذلك كفّرت من ترك العمل، لكن أصل الإيمان هو في القول والعمل، فانعدام العمل لا يوجب انعدام أصل العمل، لأنه لو انعدم أصل العمل صار صاحبها كافراً بلا جدال، فإن القول هو قولان، قول القلب الذي هو التصديق والمعرفة وقول اللسان وهو النطق بحقيقة الإيمان، فبانعدام أحدهما يخرج صاحبه من ملة الإسلام، أما العمل فهو عمل القلب وعمل

الجوارح، فعمل القلب هو الخوف والتوكل والخشوع والرجاء والمحبة... إلخ، وعمل الجوارح هو الركوع والسجود والطواف...إلخ.

فمن انعدم عنده الأول كفر بدون منازع، ومن انعدم عنده الثاني لم يخرج من دائرة الإسلام، لكن يخشى أن يلحق به الأول فيخرج من دائرة الإسلام، وعلى هذا تُقاس وتوزن جميع شعب الإيمان في هذا الميزان الذي يخرج لك صورة المؤمن والمسلم والكافر والمنافق.

من الخطأ القول بأن ترك العمل وإن كان ركناً من أركان الإسلام لا ينفي الإسلام، لأن أول أركان الإسلام الشهادة، وهي اعتقاد وقول وعمل وليس قولاً فقط، وهو قول كفار المرجئة، أما الخوارج فلم يضلوا بجعلهم العمل بالشهادة لازماً لتحقيق الإسلام، بل اعتبروا العمل بالشرائع من أداء الواجبات وترك المحرمات لازماً أيضاً، وأهل السنة يفرقون بين العمل إن كان من معنى «لا إله إلاّ الله» وما شرعه الله لنا من عبادات تفصيلية.

واختلاف أهل السنة والخوارج والمعتزلة والمرجئة في العصور الأولى في العمل إن كان شرط كمال للإيمان أو شرط صحة إنما كانوا يقصدون هذه الشرائع التفصيلية، لا عبادة غير الله من الاحتكام أو الدعاء، لأنهم لم يختلفوا فيها، ونحن اليوم نختلف حول فعل الكفر لا فعل الصلاة، فيا ترى هل الشرك ينفي اكتمال الإيمان أم ينفي صحته أصلاً؟ ومن ذلك جاءت تسميتهم الكفر الأصغر بالكفر العملي، لأنهم كانوا يقصدون بالعمل الفروع، وهي التي كانت موضوع الساعة المطروح في ذلك الوقت، أما بعدهم فوجب البيان بأن العمل منه الكفر الأكبر والأصغر، حتى لا يظن ظان بأن الكفر الأكبر هو الكفر الإعتقادي فقط، والخطر في أن ننتقل من الفروع إلى الأصل كالذي وقع فيه الذين جعلوا من القتال أصلاً ثم فرعوا عنه حقائق التوحيد.

ونحن لا نتكلم عن انعدام أعمال القلب كالمحبة والخوف والرجاء وهي أمور نسبية، أو انعدام أعمال الجوارح كالصدقة والصيام فهذا غير واقع، ولكن نتكلم عما دهى الناس اليوم وهو تقديم هذه العبادات سواء بالجوارح أو بالقلب لغير الله، فالقضية ليست ترك عبادة الله، فهذا لا يقع من المسلمين ولا من المشركين لاسيما المنتسبين إلى المسلمين، ولكن القضية هي عبادة غير الله، فإذا كفوا عن عبادة غير الله عبدوا الله وحده، ولا يمكن أن يعيشوا في فراغ، فإن فرطوا فيها من بعد، قلنا لهم: إن هذا ينقص من الإيمان وإن كان لا ينقضه.

وأنا أرى أن الإكثار من هذه المصطلحات قد يؤدي إلى نتائج عكسية، كالغموض والتعقيدات التي تساهم في ابتعاد الناس عن التفقه في الدين، واعتبار التوحيد أمراً زائداً والاهتمام بما دونه، لأن عامة الناس ينفرون من التعقيدات الفلسفية، ودين الله لا يبلّغ بهذه الطريقة، فكيف يفهم الناس الفرق بين العمل وأصل العمل أو قول القلب وعمله، ولكن نبين للناس الذين يجهلون «لا إله إلاّ الله» أنها قول باللسان، واعتقاد معناها الصحيح بالقلب بعد أن يفهموه، والعمل به بالجوارح، وهكذا يترك الناس الشرك ويدخلون في الإسلام، ومن عادة أهل السنة أنهم لا يقولون إلا ما يفهم عنهم لا كأهل الكلام، ولن يهدي الله قوماً يتخفون وراء المصطلحات ويراوغون.

فلذلك أن من كفر تارك الصلاة لزمهم أنهم أوجبوا عليه أنه لا يخاف من الله ولا يخشاه ولا يحبه ولا يتوكل عليه ولا يتوسل ولا يتضرع له... إلخ، وهذا الذي أبطله قصة الرجل الذي جمع بنيه عند وفاته وقال لهم: أيّ أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، فقال: ولكن ما عملت خيراً قط، فأمرهم أن يحرقوه إذا مات، ويأخذوا ما تبقى من رماده فيذروه في البحر والبرّ، ففعلوا، لأنه قال: لئن يقدر علي الله ليعذبني عذاباً أليماً، ولكن أمر الله لشيء أن يقول له كن فيكون، ثم سأله ما حملك على فعل ذلك؟ فقال: الخوف من عذابك، فقال: ادخل الجنة، فتبين أن هذا الرجل دخل الجنة مع أنه مارس الظاهر من الكفر وهو كونه لم يعمل خيراً قط، والخير كله في الإسلام، ومارس الشرك جهلاً لكونه ظن أن الله لا يقدر على جمعه، ولكن دخل الجنّة بسبب أصل الإيمان الذي تحقق في قلبه، ولم يتحقق في ظاهره وعمله وهو الخوف من الله تعالى.

الرّجل الذي أمر بنيه أن يحرقوه إذا مات، ورد في روايات أنه كان يحتقر عمله، فقال أنه لم يعمل خيراً قط، ومثل هذا ورد عن الذين يخرجون من النار إلى الجنّة من الموحدين، وأنهم لم يعملوا خيراً قط، وهم موحدون مسلمون، وإنما العمل هنا هو العمل بالشعائر والشرائع الأخرى وأفعال الخير التي

تعبدنا الله بها، وجهله قدرة الله على جمعه ليس شركاً به، فقد يجهل المسلم إسماً أو صفةً لله، كما جهلها الصحابة وهم مسلمون، ولو أنكر قدرة الله أو شكّ لما غُفر له، ولم يرد أنه مارس الشرك جاهلاً أو عالماً، ولا يكون مسلماً من تحقق منه الإسلام في قلبه وخالفه في ظاهره بخلاف ما عليه كفار المرجئة، فلا يلزم من كفر الكافر أن يكون لا يخاف الله ولا يحبه، فالصواب لا يرتبط بالإخلاص في كثير من الأحيان، وخوف الله قد يكون عند النصارى وغيرهم وهم كفار.

فلذلك قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «من قال لمسلم: يا كافر فقد باء بها أحدهما» ألا ترى أن من كفر تارك الصلاة وأوجب له الخلود في جهنم ألا يكون قد وقع فيما نسبه إلى تارك الصلاة الذي هو اطلاعه على الغيب من وجهين:

1) سريرة الإنسان وهو الخوف من الله وأعمال القلب التي تتفاوت بدرجات نسبية من حال إلى حال.
2) آخرة الإنسان وهي الولوج في النار بما لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

على أيّة حال إثبات الإسلام للمسلم ونفيه عن الكافر ليس اطلاعاً على الغيب، ولكنه حكم على الظاهر، والكفر ليس باطنياً فقط، فإثباتنا الإسلام أو الكفر لأحد لا يعني إثباتنا الجنّة أو النّار له.

ولكن نحن نلتمس لهم الأعذار في حالهم هذا من وجهين اثنين:

1) أنهم اجتهدوا فأخطأوا فكان لهم الأجر.
2) معذورون بعدم اطلاعهم على الأحاديث المحققة لهذا، وهذا جهلهم بها.

ومن أراد أن تنهض هذه الأمة بما نهض به أولها فعليه أن يبدأ كما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإتباع سبيل المؤمنين في ذلك، والداعي إلى الله يكون أرحم وأحلم من أي إنسان على وجه الأرض، والله تعالى أعلى وأعلم، وصلّى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كبيراً.

إذا كان بعض العلماء أخطأوا في حكم تارك الصلاة كسلاً فلماذا لا يخطئون في أمور أخرى؟ وكيف نتخذهم أدلة نحكم بهم على الكتاب والسنّة، وإذا كان من الأفضل الاستعانة بعلمهم على فهم كلام الله ورسوله فإنه لا يجوز تقليدهم إذا ظهر لنا الحق من الكتاب والسنّة، مهما كثروا ومهما فقهوا، ومن قلدهم على هذه الطريقة فهو ممن قال الله فيه: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» (التوبة:31).

وإننا نرى في قضية الاحتكام إلى الطاغوت والعذر بالجهل في التوحيد تخبطات لا حصر لها، فتجد للعالم الواحد أقوالاً متناقضة متباينة، ثم يأتي الأتباع من بعد يستدلون ويستشهدون بأقوالهم، هذا يثبت وهذا ينفي بقولين مختلفين لعالم واحد، وينتقلون في هاتين المسألتين اللتين اختلف فيهما الناس اليوم من القول إلى نقيضه، وهما من أصل الدين ومعنى الشهادة الذي لا يكون الخطأ فيه إلاّ كفراً، فليس كالخطأ في غيره، وكذلك يحصل لمن قلد في دينه الرجال، فتدبر الأمر، والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

محمد سلامي
جمادى الأولى 1425 هـ